جُزءٌ مِن النَّصِّ مفقودٌ

كتابة

بروي أنباري

ترقيق

قحطانية

1443 هـ

جُزءٌ مِن النَّصِّ مفقودٌ

كتابة

بروي أنباري

ترقيق

قحطانية

1443 هـ

جُزءٌ مِن النَّصِّ مفقودٌ

نكتب لأنَّ أحدهم انصرف مِن منتصف الحكاية دون أَنْ يكملها، جاعلًا قلم أحدهم ينزف حجم الموت علىٰ رحيله ..!

جُزْءٌ مِن النَّصِّ كان البعض أجبن مِن أَنْ يقوله، ولـٰكنّنا قرّرنا أَنْ ننطقه بدلًا عنهم، نُخبر العالَم بحجم الألم الَّذي يحسّونه ..!

"نحاول تجسيده، ولا نخفي أنّنا ربّما قَد مررنا ببعض مِن هـٰذا الشّعور أو كلّه ..!

نعتقد بأنّنا نكتب نصوصًا تُشبهنا، ولـٰكنّنا نُشبه صمتنا أكثر، الكلمات في الحنجرة لو تسرّبت تعرّينا ..!

تقف الأربع والعشرون ساعة عاجزة أحيانًا، أمام ثقب هائل مِن الألم ..!

يخاف الحرف الواحد أَنْ يقترب فيُبتلع بِنَهم ..!

إنّها حقيقة لا يُمكن إخفاؤها، إنَّ محاولاتنا المتكرّرة في توصيف فداحة ما نشعر به تُفقد الألم هيبته، بعض المواجع قَد خُلقت كي تُعاش فقط ..!

بعضُ المواجع قَد خُلقت كي تُعاش فقط ..!

- مولانا القحطاني -أعزَّه الله بمغفرته-

..المُقدّمة..

بسم الله الحميد المنّان، مُعزّ أهل الإيمان، ومُذلّ أهل الكفر والطُّغيان، وصلّىٰ اللّٰه علىٰ سيّد الثّقلان، النّبيّ العدنان، قُدوة الفرسان، مُحمّد جدّاه الذّبيحان، وعلىٰ آله وصحبه أهل الحرب والسّنان ..

أمّا بعد ..

فهٰذي حكاية مِن زمن الشّتّات وتخاذل الرّجال بعد سطوة القرود علىٰ الأسود وحُكم الضّباع أيّام الضّياع، زمن البؤس والعناء فلا ترىٰ إلّا الخيبة والشّقاء مخيّمة علىٰ الأجواء ..

ننقل ما جرىٰ والعين تدفق بالدّمع مدرارًا علىٰ ما ذهب مِن إرث لا يُعوّض والألم بمثل ألم آخر مسلم خرج مِن أرض أندلس، وذي أندلس الشّرق قلعة العزّ والمجد الّتي أضعناها بأنفسنا بعد أَنْ كانت منارةً تُقتدىٰ وخرجنا نجرّ المأساة تلو المأساة إلىٰ أَنْ بقينا أغرابًا وسط فلاة المتنطّعين والهائمين في ملذّات الحياة، تحت راية الشّرك تعلو مآذننا وسلاح أخسّ الخلق فوق رؤوسنا ..

وإنّا وإنْ كُنّا نرثي فخلف ذا يقينٌ بنصرٍ بين ليلة وأختها تعود الشّريعة الغرّاء لأنبار الإباء ولو كلّفتنا مداد أشلاء وسفحنا أغلىٰ الدِّماء ..

سناخذُ ثأركم -والله- ضعفًـا	وننثرُ شَملهم بالسّيف نثــــرا
سترجع دولةً للــــحقّ يومًـا	فصبرًا يا أخ التّوحيد صبــرا
وأبشر يا أخ التّوحيــد إنّــا	ملأنا جوفَ أهل الكُفر ذُعـرا
سيأتي اليوم يا قومي فهبّـوا	لننشد في بقاع الأرض شعرا
ونرفع راية التّوحــــيد فيها	ونُعلي شرعنا نهيًــا وأمــرا
ونمسح دمعنا ونصيح يومًا	أخذناها بحد السيف قهـــــرا

بداية رمضان ..

كنّا في أطراف الكّرمة وفي بداية اشتداد الهجمة الهمجيّة وبعد حصار لما يقارب السّنة، نفد صبر العامّة وغدت أجسام الإخوة كهياكل عظميّة مِن شدّة الجوع والخوف..

نزلنا إلىٰ المركز نلتقط بعض الميگات نراسل بها أهلنا ونطمئنّ على أحوال الجبهات الثّانية.

فتح ابن عمّي جوّاله وأنا أراقب خشية سرقة السّيّارة، فالمركز أمسىٰ كأن لم يُسكن ذات يوم أبدًا، وبينما يكتب الرّسائل رأيتُ وجهه شاحبًا، سألته عن السّبب فأعطاني الجوّال كي أرىٰ..

_ رسالة من أبناء عمومتنا.. تهديد ووعيد ونذير وشماتة بموت الأخلّاء وانحسار الرّقعة والشّتات..

توقّفتُ مليًّا فراودني شعور أَنّها النّهاية..

أغلقتُ الهاتف ومضيتُ إلىٰ الفلّوجة وتجوّلتُ فيها دون أَنْ أمرّ علىٰ أحد، فالهواجيس تملّكتني وخفتُ أَنْ أفارق الفانية دون وداع لمَن حوتني سنين وسنين..

عدتُ فسألنا الشّرعيّ عن سبب تأخّرنا فسردتُ له ما جرىٰ شريطة أَنْ يبقيه سرًّا بيننا، هزّ رأسه ضاحكًا ثمّ تلا قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ ۗ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، سكنت نفسي بعد قراءة الآية وأحسستُ أَنَّها وردت فينا وما قرأتها حنجرة قبل هٰذا اليوم..

مضىٰ هو ومضيتُ إلىٰ مصحفي وبدأتُ بالورد وما هي لحظات حتّىٰ قطعت صواريخ الباطل لحظات الصّمت المُطبقة علىٰ الجمع وكنّا نحن الهدف لابن المتعة الّذي تفصلنا عنه بضعة كيلو مترات، وككلّ قصف فما نملك غير الذِّكر والدّعاء.

استمرّ الحال عدّة ساعات إلىٰ آذان العصر الّذي ما كنّا نسمعه لخلوّ المنطقة مِن أيّ ساكن غيرنا فأمهلَنا دقائق نصلّي فيها ثمّ عاود الكرّة، وأثناء هٰذا وصلنا نداء أَنّهم ينوون اكتساح الگرمة وصولًا إلىٰ المدينة، قمنا نعدّ العدّة ونجهّز القلوب باليقين قبل تجهيز الأيدي بالسّلاح وفي طريقنا إلىٰ آخر نقطة بيننا وبينهم أهدتنا مسيّرة هديّة قبل الإفطار ولأنّها كريمة عكس السّيخوي فقَد أوقعتها في وسطنا..

صحوتُ والضّماد يلفّني مِن كلّ جانب وحاولتُ فتح نافذة لعيني أرىٰ بها فوجدتُ صهري بجانبي وما إنْ أحسّ بي إلّا وتكبيره علا في أرجاء الممرّ ودخل الدّكاترة والأطبّاء ليروني قَد نهضت والعجب يتملّكهم، سألتُه عن سبب مكوثي هنا فراح يشرح لي ما حدث وسألتُه عمّن معي فأخبرني بمقتـ ـلهم جميعًا، عصرتُ ذاكرتي وتخايل إليّ الموقف وأنا أطير من السّيّارة وطارت معي يد أحد الإخوة فما شعرتُ بشيء بعدها أبدًا..

إلّا أَنَّ الدّكتور وكان من بريطانيا ومعه بعض الدّكاترة جلّهم مهاجرون راحوا يتمتمون بينهم وعادوا إلىٰ صهري ثمّ خرجوا.

قال لي صهري أنّهم أخبروه باحتماليّة فقدان ذاكرتي نهائيًّا وربّما أجنّ -هٰذا إنْ عشتُ- فبعض الشّظايا تمكّنّ مِن الولوج إلىٰ الدّماغ وبأيّ ضربة أو صدمة أُصبح أثرًا بعد عين، استذكرتُ قول أحد الدّكاترة -وكان قَد قضىٰ نحبه- بأَنَّ الإخوة يأتون إليه وما بينهم وبين الموت شعرة وبعد يوم يدخل إليهم فيجدهم متبسّمين بوجهه.. قلتُ له إنْ كُنّا إخوة وكان الجرح في سبيل الله فلن يضرّنا..

أثناء جلوسي في المستشفىٰ سيطر الرّوافض وخلفهم تحالف العجم علىٰ جزء كبير من الگرمة وأُعلن النّفير في عموم الولايات الخمسة الموجودة في الفلّوجة وتحزّمت الكتائب وعُقدت الألوية ووصلني خبر مقتل ابن عمّي الّذي كان ظِلّي أينما حللتُ وخليلي أينما رحلتُ فعزمتُ علىٰ النّهوض إلّا أَنَّ الخبر أتاني بأَنَّ الإخوة استعادوا مساحةً واسعةً مِنها فذهبتُ لأرىٰ جثّـ ـته وفي الطّريق وجدتُ أبي وكانت ملامحه شاحبة كأنّ البضعة أشهر غدت عقودًا وقام -كعادته- بتوبيخي علىٰ خروجي من المستشفىٰ دون إتمام العلاج، قلتُ له المرحلة مرحلة وقوف لا قعود علىٰ الطّاولات، ثمّ إنّي أريد رؤية فلانًا -ابن عمّـي- ، قال لي ولٰكنّا دفنّاه وجثّته متفحّمة..!

يا الله..!

كم من الجبال أطبقت علىٰ صدري حينها، خليل الحلّ والتّرحال والألم والأمل يذهب هٰكذا بدون وداع..!

تلك القامة الّتي كانت حياتي سابقًا تتفحّم الآن..!

ما كان بوسعي سوىٰ أَنْ أعزّي نفسي بنفسي كما كلّ مَن فقدتهم قبله فطريقنا كريه لا يصبر دون أخذه لمَن نُحب..

تركتُ والدي وذهبتُ لأخذ سلاحي وبعض الأغراض فوجدتُ العسكري أبو ميمونة الأثري -عليه رحمة الله- وفعل كما فعل الوالد وأخذ السّلاح وأنزلني عند الجامع الّذي كنتُ خادمه لسنين وقال أعود لك بعد شفائك، ما كان في اليد حيلة فالقتل هيّن لٰكن فقد الذّاكرة -المحتمل- لا يُطيقه الحر..

أخذتُ مفاتيح الجامع وأذّنتُ بعد غياب عنه لسنةٍ تقريبًا واجتمع الأهل والصّحب لرؤيتي والاستفسار عن الوضع عمومًا..

كان يوم الثّاني عشر من رمضان يوم ترقّب للحملة المنتَظر انطلاقها بعد أيّام عديدة من طرف التّحالـ ـف وحزبه وفيه التقطنا الأنفاس ونزل الإخوة ليودّعوا الزّوج والولد والكلّ ينتظر القادم..

ذهبتُ في عصر اليوم إلىٰ الكَرمة لأودّع ما يودّعه امرؤ يعلم أَنَّ هٰذه آخر أيّامه في تلك البلاد وعدتُ بعد ساعة ، في طريق العودة سلكنا طريق الكَرمة-فلّوجة الرّئيسي وكان كأنّه لعبة call of duty بتقنية D5

همرات محروقة.. أسلحة.. دخان.. ترقّب.. طرق شبه فارغة ورغم ذٰلك الحياة جميلة، هه..

نزلنا عند الجامع فأذّن المغرب مِن يوم الثّاني عشر مِن رمضان وانتهىٰ يوم بقرن مِن أيّامكم..

بدأ يوم الثّالث عشر بدايةً غير عاديّة أبدًا..!

أخذتُ مفاتيح المسجد قبل آذان الفجر بساعة ونصف وجلستُ وحدي في الباحة مِن الهمّ الّذي كان كجبالٍ جاثية علىٰ صدري، مرّت نصف ساعة ثمّ قمتُ لتشغيل المولّد وكان هو الجامع الوحيد في الفلّوجة يوجد به كهرباء إذ الموادّ معدومة إلّا أنّي وجدتُ بداية عودتي له برميل كاز يتحمّلنا إلىٰ انتهاء الشّهر الفضيل، شغّلتُه وعدتُ وما أحسستُ إلّا برمي مكثّف تجاه المنارة فأطفئتُ الأضواء جميعها ولـٰكن الغريب في الموضوع أنَّ الرّمي قريب ونحن في القسم الشّماليّ للفلّوجة فالمفترض أنْ يكون بيننا وبين الثّغور مسافة طويلة لا تصلها الدّبّابة بَلْهَ عن المدافع الرّشّاشة..!

جاء بعض الإخوة ومِن ملامحهم عرفتُ أنّهم يتبعون الإداريّات فسألتُهم عن أحوال الجبهة فقالوا أنّ الرّوافـض في السّجر، ووصلوا مشارف الجغيفي الثّانية.. كيف حصل ذٰلك واستطاع الأوغـاد التّوغّل كلّ هـٰذا؟! قال أنّ الإخوة في القاطع الفلاني قُتلوا عن آخرهم ولم يبقَ مِنهم فرد، إضافةً إلىٰ أنّا لم يأتِنا خبر فحصل ما حصل والآن أُعيد نداء الاستنفار..

ما أكملنا نهار الثّالث عشر مِن رمضان إلّا ونحن نودّع أهلنا لشدّة القصـف والرّدم الّذي تعرّضت له المدينة بغير الدّبّابات الّتي وقفت علىٰ أعالي الجبهة الشّماليّة الشّرقيّة..

بدأ الرّابع عشر خفيفًا مِن ناحية المعـارك ثقيلًا مِن القصـف الّذي أكل الأخضر واليابس..

ولأنّ الرّعيّة خرجوا مِن المدينة باتّجاه أرياف النّسّاف والفلاحات والبو عيسىٰ فقد تركوا ماشيتهم خلفهم وهامت في الطّرقات فذيع في المساجد أنْ إذا استطعتم تربيتها أو أكلها فخذوها ومات منها الكثير جرّاء القصـف وكان الطّيّار اللّقيـط يضرب بتجمّعات الإبل والبقر فتسيل الشّوارع دمًا..

أخذتُ في تلك الفترة العديد من الإبل وضممتُها لِما كان معنا وكنّا نذبـح ونتجوّل نوزّع اللّحم علىٰ النّاس وما كان يوجد خبز أو شي تلفّ اللّحم فيه، فيُأكل كما هو ويُشرب ماؤه..

وعلىٰ مدار سنة مِن الحصار وخصوصًا آخر أيّامه كان الطّعام المتوفّر هو اللّحم ولو قلتُ أنّي أكلتُ نوقًا بأكملها لما زللت..

بعد صلاة المغرب أقفلتُ الجامع وعدتُ إلىٰ البيت وبدْءَ دخولي فاجأتني أختـي أَنَّ أحد زوجات عمّي -عليه رحمة الله- خرجت إلىٰ أرض الكُـ فـ ـر، وما بين الدّهشة والاستغراب وعدم الطّمأنينة أكلتُ علىٰ عجلة وذهبتُ إلىٰ عمّـي لأستفسر فقال أَنَّ الإخوة يتدارسون قضيّة خروج العوائل..

وهنا تيّقنتُ أَنَّ في الأمر إِنَّ..!

فالأمر إذا كان فيه خروج العوائل يعني إمّا فناء لرجالات الإسلام في هٰذي البقعة الطّاهرة أو انسحاب وهٰذا ما لا يُطاق..!

تركتُه وعدتُ إلىٰ الجامع لنؤذّن العشاء بعد وقفة طويلة وأخذ وَردّ انتهت بعراك معه كما كلّ مرّة.. بعد صلاة العشاء والتّراويح جاء أمير ديوان الدّعوة والمساجد أبو صهيب الحلبوسي فأخبرني أَنَّ الإداريّين سيأتون غدًا لأخذ الكاز بسبب شحّته وتوقّف بعض الآليّات العسكريّـ ـة وقال لي بالحرف (هناك أخ استشـ ـهـ ـادي توقّفت سيّارته في وسط الطّريق وآب إلينا) ، قلتُ له خيرًا إن شاء الله وأخذتُ منه قليلًا علىٰ جنب عسىٰ ولعلّ..

في نهاية اليوم أتت طائرتان فرنسيّتان من نوع "راڤال" ومعها "B-52" أميركيّة وبعض السّيخوي الإيرانيّة وفتحتا نيرانهما ليُعلنا بَدْء سياسة الدّمار الشّامل فمادت بنا الأرض مِن تحتنا واحترق حتّىٰ الجماد ونامت الفلّوجة نومتها الأخيرة قبل وطء المشركين ترابها الطّاهر..

كانت بداية يوم الخامس عشر ساكنة بعض الشّيء ولٰكنّ سكينتها تكمن في الهدوء ما قبل العاصفة، بعد الظّهر ذهبتُ إلىٰ المستشفىٰ لأتفحّص حالي وكان معي بعض الأخلّاء وفي طريق عودتنا واجهنا أبـا فاطمة العسكـ ـري وكأيّ شخص سألتُ عن الحال فقال لي أنّ الإخوة علىٰ أتمّ الجاهزيّة وحصلت بعض المناوشات في اللّيلة السّابقة هلك علىٰ إثرها أحد جنرالات الحرس الثّوري فما استطاعوا الرّدّ إلّا بالقصـ ـف مثل الجبناء، فتملّقتُ له مِن أجل إعادة سلاحي وأماناتي وعاهدتُه أنّي لن أصل إلىٰ الثّغور دون علمه.. "قالوا للكاذب احلف قال أتىٰ الفرج" هه !

مرّ اليوم بدون شيء يُذكر سوىٰ أنّنا استطعنا التّواصل مع المركزيّة في المَوصل وعلمنا مِنهم أَنَّ عُمر الشّيشاني بأمر الشّيخ أبي بكر -عليهما رحمة الله- جهّز حملة مِن أجل فكّ الحصار مِن عدّة جيوش علىٰ رأسها الخـ ـلافـ ـة والعسرة وستنطلق بعد أسبوع.. حمدنا الله علىٰ أَنَّ هٰذه المدينة الّتي كسرت شوكة كفـ ـرة العجم بالأمس واليوم ما نُسيَت مِن أهل الأمر بعد..

بعد غروب شمس الخامس عشر مِن رمضان وانقضاء النّصف كان علىٰ الإخوة أَنْ يصمدوا بالقليل الّذي عندهم حتّىٰ تصلهم الإمدادات مِن الخارج إلّا أَنَّ مسألة العوائل كانت مقلقة لأهل الأمر كثيرًا.

بعد الإفطار ذهبتُ لفتح الجامع وكان ينتظرني كثير من العوامّ فالنّاس ملّت ولم تعد ترتاح بغير بيت الله، أذّنتُ وعندما انتهيتُ وجدتُ الوالد خلفي وكثير من الإخوة معه فسرّني ذٰلك واستبشرتُ بعودتهم سالمين، وعندما حان موعد الصّلاة قدَّمْنا والدي لحاجتنا الماسّة إلىٰ مَن يقرأ المقام العراقي ببحّة قديمة فتقدّم وأصوات القصف والرّمي حولنا ولم تخب الآمال به وقرأ حتّىٰ ضجّ المسجد بالبكاء وعندما وصل إلىٰ التّهجّد دعا فأبكىٰ أكثر وعَلَت صيحات بعض الإخوة بالتّأمين علىٰ دعائه وكان صوته يقول لنا "ابكوا كثيرًا فهٰذي آخر الأيّام**!"**

انتهت الصّلاة ووقف النّاس في الباحة الخارجيّة للجامع ينتظرونه وكلّهم أمل يتخلّله الخوف فسألوه عن الحال ولم يستطع سوىٰ قول: ((عليكم بتقوىٰ الله وألحّوا عليه بالدّعاء وانتظروا ما يُذاع)) ، خرجنا وقد رافقتُه وكان يسبقني ببضع خطوات مع مَن معه وما شعرتُ إلّا بالدّنيا تسودّ بوجهنا فرميتُ نفسي عليه وسقطنا سويًّا علىٰ الأرض.. كان الصّاروخ يحمل منيّة أحدنا لٰكنّه بقدرة الله تجاوَزَنا وأردىٰ طفلًا صغيرًا كان يقف أمام داره خلفنا بقرابة المئة متر، حملناه إلىٰ المستشفىٰ وفيها أحسستُ بتحرّك شيء في رأسي ولمّا أمسكتُه عادت يدي ملطّخةً بالدّماء وبعدها تقيّأتُ بعضه مع حديدة فلم أرد تشتيت والدي في هٰذه النّازلة وذهبتُ خِلسةً إلىٰ الضّماد ثمّ إلىٰ قسم الأشعّة ولم يكن العجب موجودًا لو لم تحصل لي هٰذه، قالوا لي أصابكَ شيء أثناء سقوطك وخرجت الشّظايا الّتي تحملها والّتي كانت بدورها في رأسك وعجزنا عن عمل عمليّة لها وأنا والّذي نفسي بيده لم أشعر بأيّ شيء أصابني..!

ذهبتُ فرحًا ولمّا وصلتُهم وجدتُ الطّفل فارق الحياة وحزّ في نفس الوالد فقد كان يأتيه يطلب أَنْ يدرّسه العقيدة بينما أقرانه يلعبون ورغم منع والده له مِن الذّهاب إلىٰ الجامع في آخر فترة خوفًا عليه مِن الرّصاص أو القصف المكثّف إلّا أنّه بقي يقف في باب البيت يُسلّم علىٰ المصلّين أثناء ذهابهم وعودتهم، كان القتيـ ـل يُدفن بساعته لا جنازة مهيبة ولا عزاء فاليوم الواحد يُقتـ ـل به عشرات وصرنا نرىٰ الموت شيئًا عاديًّا إلىٰ درجة الضّحك علىٰ مَن يُبالغ بحزنه..!

عُدنا إلىٰ البيت وقبل أَنْ أفتح باب الدّيوان سقط خلف البيت أربعة صواريـ ـخ متتالية أحرقت بعض البيوت وأخذت مِنّا أربع ساعات لإخمادها، نمتُ منهكًا وسمعتُ ضجيجًا؛ حرّكتُ رأسي ورأيتُ من شبّاك الغرفة حريقًا والأهل في حالة هلع فعدتُ لأنام قليلًا قبل الموت..!

نهضتُ بعد ساعتين أو أقلّ فوجدتُ بيوتًا محترقةً كثيرة في المربّع الّذي نقطنه وما كان عليّ إلّا أَنْ أتفحّص إذا كان أحدٌ ما قُـ ـتـ ـل أو لا، ولله الحمد لم يصب فينا شخص بخدش، فأخذتُ طريقي بوجهي إلىٰ الجامع لنقيم الصّلاة وعدنا دون أيّ شيء يُذكر..



شبل علىٰ الصّفوف الأماميّة في معركة الأزركيّة ..

اليوم السّادس عشر..

جلسنا وإذْ بالفلّوجة خاوية علىٰ عروشها كأن لم تُسكن بالأمس، والمدافع والطّائرات لا تتوقّف ولو لحظة، أضافوا لها الرّصاص حيث أنَّ البيكيسي أضحت تصل إلىٰ قلب السّوق وتتجاوزه، سكنّا قليلًا إلىٰ الظّهيرة ليأتي العسكريّ أبو فاطمة ويضع أهله عندنا وقبل أنْ يتكلّم جاء والدي أيضًا وإخوتي معه فأدخلنا الوالد إلىٰ الدّاخل وبدأ بحديثه معي وكان الأمر الموجّه لي هو سلامة العوائل مع مجموعة عوائل تنتظرنا خلف النّهر وإيصالهم إلىٰ العامريّة.. ثمّ قال لنا جميعًا بعد سرده لتأريخ العائلة وحالنا: ((مَن أراد الخروج مع العوائل فليخرج وأنا ربّيتكم لهٰذا اليوم والخيار لكم)) ،جميعنا أقررنا بالثّبات إلّا أنا صمتُّ فخرج ولمحني بنظرة وقال لي: ((أنتَ أيضًا مُخيّر))

لحقتُه عند أبـي فاطمة فسمعتُ اللّاسلكي يقول أنَّ الرّوافض وصلوا إلىٰ قلب نزّال..!

فضرب رأسه قويًّا علىٰ السّيّارة واحتسب ربّه وأقسم لنا أنّهم للتوّ صدّوا هجوم الأزرگيّة وذهب فيها عدّة إخوة ثمّ قال: ((لهٰذا قُتـِلَ أبـو فرح)) *

أخذتُ العوائل وأوصلتهم خلف النّهر في إحدىٰ مزارعنا وكان عددهم كبير ممّا استوجب أنْ آخذ بعض أولاد عمّي لقيادة المركبات، كان الطّريق هو الوحيد الّذي تسير فيه العوائل وغالبيّتهم سيرًا علىٰ الأقدام والنّاس بأجمعها حوالي 150,000 فرد والغالبيّة نساء فلا ترىٰ إلّا السّواد في وسط عاصفة وصلتنا من الصّحراء لا يكاد أحدنا ينظر بها ما تحت قدمه وسمعتُ النّاس يقولون "كأنّه يوم المحشر"

بالفعل كان يومًا غير عاديّ بالمرّة ففيه انتكاسة إلىٰ اليوم ندفع ثمنها بالأنفس والأموال والأولاد والأخلّاء، أوصلناهم إلىٰ النّهاية والواجب علينا بصفتنا رجالًا ألّا نبكي لفراق الأهل حتّىٰ وإنْ كنّا نوقن أنّه اللّقاء الأخير، ليس باليد حيلة هٰكذا جرت العادة..!

عدتُ إلىٰ البيت ورأيتُ الآل كلّهم متأهّبون سوىٰ مَن لم يكن نزوله معنا فتواصينا وتوادعنا والتحق كُلٌّ مِنّا بثغره والتحقتُ أنا مع الوالد علىٰ ثغر الشّارع العامّ، جلسنا فوق أحد العمارات المطلّة علىٰ الجانب الجنوبي مِن المدينة وأخذ يستذكر اللّحظات مذ ولادتي إلىٰ جلوسه واستذكر واحدة لا تنسىٰ مِن ذاكرتي أبدًا..[1]

قال لي: الدّنيا أثقلتنا والجهاد أبعدنا عن المراجعة وبما أنّك عندي الآن تعال فراجعني ولٰكن إيّاك أَنْ تكون المراجعة كسابقاتها..

جلستُ أراجعه وشاء الله أَنْ يكون قَد وصل إلىٰ سورة آل عمران أيضًا وأثناء المراجعة أتانا طارق أَنْ حان ردّهم وما كان بالإمكان إكمال المراجعة فتجهّزنا علىٰ عجلة ودارت معـ ـركة ليومين كاملين استطعنا ردّهم من عدّة أحياء إلىٰ حيّ الشّـ ـهـ ـداء آخر حيّ جنوب الفلّوجة وتلاحمت الصّفوف واستعدنا الأنفاس والأمل وكانت بيعـ ـات الموت تتوالىٰ وأتانا ثلاثون رجلًا من إحدىٰ العشائر وبايعوا علىٰ الموت في سبيل الله وألّا يدخل الرّافضة الفلّوجة إلّا علىٰ جثثهم واشتعل الحماس عند كثير..

بالرّغم مِن ذٰلك فالدّاء لم يكن بالعدد إنّما بالعدّة، فقَد كانت ولايتي الفلّوجة والجنوب وولاية شمال بغداد وقسم من بغداد وقسم من صلاح الدّين وأفراد من ديالىٰ كلّهم في الفلّوجة..

[1] *وفيها أنّي كنتُ المقرّب مِنه دون البقيّة في كلّ شيء خصوصًا في طلب العلم، وكنتُ أراجع له في حفظ كتاب الله وهو يراجع لي أيضًا، وإحدى المرّات كنتُ أستمع له في آل عمران وعنده مصحف أتاه هديّة مِن ابن عمّه في نجد كان يوجد به أسباب النّزول وتفسير عدّة مفسّرين وناسخ أو منسوخ وكلّ شيء فتركتُ الاستماع له ورحتُ اقرأ في التّفسير، نسي هو وكان عليّ أَنْ أَردّ له ما توقّف عنده ولسوء الحظّ كان متقدّمًا عنّي بنصف حزب ولم أعد أعرف أين وصل فأعاد وأعاد وأعاد ولم أجبه حتّىٰ رآني فزعًا وأقلّب في الصّفحات فقام وصفعني وبدأت معركة سيوفها يده ورأسه وقدميه وقتـ ـلاها المسكين محدّثكم..

السّلاح والذّخيرة علىٰ وشك النّفاد وغالب السّلاح تصنيع محلّي في مصانع الإخوة والحصار فعل فعلته بالنّسبة إلىٰ النّقص الكبير، كنّا نخرج بصولات وغزوات ونصف الإخوة لا يخرج منهم صوت رمي نلتفتُ إليهم لنرىٰ أَنَّ سلاحهم صدأ أو الذّخيرة لا تنفجر؛ هٰذا وغيره من المسبّبات الرّئيسيّة في خسارتنا المعركة الأخيرة..

وقد ارتقىٰ في معركة السّابع عشر والثّامن عشر ثلاثون أخًا شهداء -نحسبهم- مِن ضمنهم أخ جزراوي أوصاني قبل المعركة أَنْ إذا قُتل وسلّمني الله أُخرج أهله فالمعركة كانت علىٰ مقربة منهم، أخذتُ إذن من الوالد وذهبتُ إلىٰ العنوان الّذي أعطانيه فخرج لي طفلان وعجوز نقلتُ لهم خبر مقتل ابنهم وما رأيتُ مِنها إلّا الصّبر وبادرتني بالسّؤال عن المعـركة وتركت أحفادها يندبون والدهم..

والصّبر في هٰذه المواطن عسيرٌ علىٰ كثير، أقلّ ما يمكن فِعله هو البكاء إلّا أنّها صبرت ولم تبدِ أيّة صدمة سوىٰ احتسابها وحوقلتها..

ركبوا السّيّارة وكان عليّ عبور الجسر مسرعًا وصاحب المدفع الرّشّاش يرمينا بحممه، والقنّاص يحاول اصطيادنا..

عبور الجسر في تلك الأيّام كانت عبارة عن تقمّصك دور الغزال الفريسة والذّئب الصّيّاد ذو المدفع والصّيّاد البشر صاحب القنّاص، عبرنا سالمين بمشيئة الله وتركتهم عند بيت صاحب فلا يستطيعون الخروج كونهم غرباء عن البلد -غرباء في دار الكـفـر أهلٌ في دار الإسلام- وما يقع عليهم هو انتظار أفعالنا نصمد ونعيد لهم المدينة أو نفنىٰ ويفنون.

في آخر اليوم دُعينا إلىٰ جلسة مغلقة من عدّة أطراف تضمّ الولاة والإداريّين والعسكريّين والشّرعيّين وأمراء القواطع لكلّ مِن الفلّوجة والجنوب وأمراء القواطع في الولايات الثّانية ونائب والي بغداد وعدّة مشايخ وأمراء وكلّ أهل الشّأن في المدينة للجلوس والنّظر في الحال والمآل وما فُعل وما سوف يُفعل، كنتُ الوحيد من خارج دائرة أهل الشّأن ودوري فيه كما نسمّيه عندنا "معزّب" لٰكن أُغلقت الجلسة بعد أَنْ أُعلمنا بعدم حضور والي الجنوب لطارئ حَلَّ.. وأجّلها والي الفلّوجة إلىٰ مساء اليوم التّالي..



ليلة خروج العوائل ..



أبو فاطمة العسكري الجميلي -عليه رحمة الله-



جنود الله يعبرون الشّارع العام ..

انتكاسةٌ وانتفاضةٌ

في اليوم الثّاني أتينا إلىٰ الجلسة وتقدّم أبو فاطمة العسكري الجمع وحمد والله وأثنىٰ ثمّ انطلق في الكلام وذكر بعض ما مررنا به وأخذ الحديث عنه الواحد تلو الآخر إلىٰ أَنْ انتهت بأقلّ ممّا نتوقّع وهو الصّبر إلىٰ أَنْ يأتي المدد أو تنفد الذّخيرة وننسحب فانتدب بعض الأمراء وعلىٰ رأسهم أبو ميمونة الأثري وأبو وليد وخطّاب فلّوجة وأبو صالح الزّوبعي -عليهم رحمة الله أجمعين- إلىٰ رفض خيار الانسحاب كاملًا وألّا يُفكّر أحد به البتّة وتركوا المجلس وخرجوا فأُغلق علىٰ إثرها..

في العشرين من رمضان تقدّم الحلف الصّليبي من الحيّ الصّناعيّ باتّجاه الشّارع العام وأحكموا السّيطرة علىٰ الجانب الجنوبيّ كاملًا وكان الشّارع العامّ من رأسه الجسر الجديد إلىٰ نهايته سيطرة الموظّفين أرضًا حرامًا علىٰ الطّرفين

وهنا تحوّلت المعركة إلىٰ حرب شوارع وللقنّاص الرّيادة فيها إلّا أَنَّهم لم يرق لهم الوضع فأنزلوا عمارات الشّارع إلىٰ الأرض بصواريخ تحمل أطنان المهالك، اضطرّ الإخوة إلىٰ الانسحاب قليلًا عن الواجهة وإبقاء القنّاصين بالواجهة فقط..

أوشك الطّعام علىٰ الانتهاء وكان العبور إلىٰ النّسّاف محاولة انتحار وهو المكان المخزّن فيه الأكل "الأكل تمر مخزّن من عشر سنين الدّود فيه أكبر من نواته" فاضطرّوا أن يعبروا سباحةً فرادىٰ حيث أَنَّ قنّاصهم أيضًا له دورٌ فيها..

الواحد والعشرون أتىٰ أمرٌ بإخلاء الفلّوجة مِن أيّ امرأة أو عائلة حتّىٰ لو كانوا مهاجرين أو من ذوي أهل الأمر ولأجل عبورهم سالمين افتعلوا اشتباكًا بالرّمي حتّىٰ لو في الهواء فقدّر الله وانسحب الرّافضة أكثر من خمسمئة متر إلىٰ الخلف وتقدّم الإخوة واستعادوا الشّارع العام من جسر قيس إلىٰ الجسر الجديد واستطعنا إخراج العوائل بأمان إلّا زوجة دكتور بريطاني أبت الخروج وأعطتنا أطفالها أمانةً وما كان بالإمكان جبرها فلمّا عدتُ قلتُ لأبي سعد ذاك ومِن شدّة غضبه أراد أَنْ يصفعني لولا تنبيهه من أبي عوف السّامرّائي فنادىٰ علىٰ الدّكتور وقال لهم:

-اجلبوا الدّكتور لي الآن حيًّا أو يُهدر دمه والّذي أنزل الكتاب.

جاء الدّكتور حيث الوالي وبعض الإخوة فبادره أبو سعد بلهجة غاضبة وعيونه تقدح شرار وسأله عن عدم استجابته للأمر وانصياعه لِما صَدر فقال بلهجة ضعيفة:

- عشر سنين أنتظر الوصول إلىٰ الفلّوجة والآن تريد أهلي يخرجون منها؟ إذا أردتَ فاقتلهم معي ولٰكن لن نخرج.

خجل الشّيخ لقوله وأَحَسَّ بالذّنب وتركه وراح يبكي في زاوية كالطّفل، ولَمَّا سألناه قال: بسبب تهاوني وعدم إدارتي ذهبت الفلّوجة، قُلنا: يا شيخ اتّقِ الله ولا تجعل لفأل الشّرّ عليك سبيلًا..

فواسيناه وقام فأصدر أمرًا بأَنَّ القيادة سُتحال إلىٰ أبـي فاطمة العسكري إلىٰ حين استعادة المدينة أو يُقتل الجميع.. استبشر الإخوة جميعًا لهٰذا القرار المنتَظر منذ سنين إذ أَنَّ الشّيخ أبو ميمونة الأثري عسكريّ الأحياء الشّرقيّة في معركة الفلّوجة الأولىٰ وعسكريّ "السّجر" في الثّانية والمسؤول عن القاطع الجنوبي منذ خروجه مِن السّجن عام 2009م إلىٰ عام الفتح، وفتح الله علىٰ يديه عدّة مناطق كالنّعيميّة الّتي كان أمير غزوتها بعد حجّي داوود -عليه رحمة الله- ومنطقة الفلاحات و"السّجر" والمعامل وقضاء النّسّاف وهو الّذي استرجع الكَرمة بعد أَنْ احتـلّت عام 2015م وكانت له صولات في الرّمادي وبالمجمل فالشّيخ ابن المدينة ويعرف دهاليزها وخباياها وصاحب علم ومِن القلّة الّذين كانوا أمراء في المعركتين السّابقة ولم يُحوّلوا إلىٰ المركزيّة ويخرجوا من الفلّوجة أو يُقتلوا ..

كانت المعركة في الجانب الشّمالي علىٰ أوجّها مستعرة والقائم عليها أبو فاطمة فأصدر قرارًا أَنْ يجتمعوا بعد يومين لعدم تفرّغه..

في هٰذه الأثناء استعاد حلف الأعاجم ما أخذه الإخوة وعادوا إلىٰ الشّارع العام بل واستطاعوا الوقوف عليه وتثبيت أركانهم ولم يبقَ للإخوة إلّا قليل مِن الأحياء داخل المدينة وهي:

الأندلس، الجولان، المعلّمين الأولىٰ والثّانية، الضّبّاط الأولىٰ والثّانية، الجغيفي الأولىٰ، العسكري، الوحدة، المهندسين.

ولربّما تكون للقارئ كبيرة وهٰذه حقيقة لٰكن ما أُخذ أكبر وأكثر استراتيجيّة وعلىٰ هٰذه المساحة فلا يوجد مَن يُمسك بها بعد هروب عدد كبير من مجاهدي الإصدارات والأناشيد ومَن في قلبه خبث.

بعث أبو فاطمة إلىٰ أبـي سعد أَنْ أخرج ما عندك مِن استشهاديّين فلا حَلَّ آخر بوجه هٰذه الجيوش الهائمة، وبالفعل قدروا بفضل الله علىٰ إيقافهم قليلًا وإنهاكهم بالأرواح والمعدّات وحصدت كثيرًا من رؤوسهم ورتب عالية فيهم مِن الحرس الثّوريّ المجوسي..

استمرّ الحال هٰكذا عدّة أيّام وكان العام الثّاني علىٰ التّوالي الّذي يُفطر فيه الإخوة لحملة عسكريّة كبيرة عليهم وكانوا يبكون ويتحسّرون علىٰ ما فاتهم مِن طاعة، ويا ليت شعري لو دروا بمَن خلفهم كيف يشكي مِن صيامه بضع سويعات وهو جالس تحت المكيّفات بين أهله وخلّانه آمنًا مطمئنًّا فلله

رجال رأتهم عيناي يتساقطون من شدّة الجوع والألم ولا يقبلون الإفطار بينما مَن يُقاتلون لأجلهم يهرولون إلىٰ مشايخ الشّاشات ويُكثرون مِن الأعذار لأجل تحصيل فتوىٰ بعدم الصّيام..!

لله رجال..!

مقتل العسكريّ العامّ والانسحاب

بعد يومين حان موعد الجلسة المرتقبة ودخل أبو فاطمة وأبو سعد وحجّي عارف وثلاثة من الإخوة أحدهم من الفلّوجة والاثنان من الجنوب، سلّموا فوقفت الأطراف في غرفة لعمارة هيكل لم تُكتمل بعد فما هي إلّا نصف ساعة وأسقطت طائرة مسيّرة صاروخًا جاء علىٰ حين غفلة، قمنا ننفض التّراب عن جباهنا وعيوننا ورأينا الشّيخ أبـي فاطمة مسجّىٰ بدمائه وأقبلنا عليه وهو في أنفاسه الأخيرة ظلّ يُردّد "الفلّوجة الفلّوجة" عدّة مرّات ثمّ أطلق لسانه كلمة التّوحيد لتفيض الرّوح وتنتهي حياة ذٰلك الجبل الأشم، وكنّا نخشىٰ علىٰ معنويّات الإخوة إذا أخبرناهم بموته فأمَرَنا أبو سعد بعدم البوح إلىٰ حين.

أخذناه ودفنّاه في مقبرة شهداء الفلّوجة وودّعناه الوداع الأخير وبالله لم أرَ رجلًا صاحب هيبة حتّىٰ في موته مثله.

في اللّيل انتشر الخبر ولا نعرف كيف فأراد أبو سعد أَنْ يعيد للإخوة العزيمة وعمل علىٰ كمين فنادىٰ عبر القبضة علىٰ الكفـرة وأتاه الجواب مِن قائد الحملة الرّافضي وتحدّاه أبو سعد أَنْ يدخل بنفسه إلىٰ تلك العمارة وبالفعل كان الشّيخ بها.

جُنّ جنون الرّافضة والمرتدّين وانهالوا ضربًا وقصفًا بها ولَمّا وصلوا لها انسحب الشّيخ ومَن معه وفجّرها بمَن فيها ليُقتل أكثر من مئة وخمسين خنزيرًا واستطاع بفضل الله أَنْ يعيد شيئًا من الأمل.

أراد الرّافـضـة أَنْ يُعيدوا الاعتبار لأنفسهم فتقدّمت في العاشرة ليلًا عدّة أفواج من جهة الشّارع العام وأبادها المجاهدون بفضل الله وتقدّمت أخرىٰ فأُبيدت..

إلّا أَنَّ المعركة من الجهة الشّماليّة الشّرقيّة كانت تسير نحو الأسوء فقد استطاعوا احتـلال العسكريّ والضّبّاط وعدّة أحياء، انحصر المجاهدون في بقعة صغيرة وأثناء هٰذه انسحب أبو

سعد إلىٰ النّسّاف خارج الجسر ليحاول الاتّصال بالمركزيّة ويعيد تنظيم الصّفوف ولم تصله أخبار المعارك فقَد كانت عشوائيّة لا قائد لها، يجتمع بعض الإخوة ويبايعون رجلًا علىٰ الموت فيذهبون ويُقتلون عن آخرهم فيأتي خلفهم إخوة مثلهم يُبايعون رجلًا علىٰ الموت فيذهبون ويُقتلون عن آخرهم..

واستمرّ الحال علىٰ هٰذا مِن اللّيل إلىٰ ظُهر الخامس والعشرين من رمضان لم تتوقّف المعركة ولو لحظة وأمّا القصف فحدّث ولا حرج، وقَد كانت الفلّوجة مغطّاة بغيمة سوداء بعد أَنْ أحرق الرّافـ ـضـ ـة جميع بيوت العوامّ الّتي سيطروا عليها بعد نهبها وسرقة ما يقدرون عليه..

أذّن العصر وفُتح النّداء مِن أبـي سعد إلىٰ جميع الإخوة الموجودين داخل المدينة:

-إلىٰ جميع الإخوة الموجودين في الدّاخل بالانسحاب إلىٰ الرّيف الغربي المدينة خارج النّهر

وللأسف كان القرار متأخّرًا، فقَد حوصر الإخوة بمساحة ضيّقة لا تتجاوز كيلو متر واحد، وكان عليهم عبور النّهر سباحةً والهرب من القنّاص وصاحب المدفع الرّشاش، بدأ الانسحاب غير المتّزن وكان الإخوة يأتون مسرعين من جهة البيوت ويقفزون في النّهر فيصطاد مَن يصطاد القنّاص ومَن معه ويغرق مَن لا يعرف السّباحة ولا حَلَّ له سوىٰ القفز في النّهر، غرق يومها أكثر من ثمانين أخ جلّهم من الأنصار، وبقي آنذاك أربعون أخ مهاجر منهم خمسة وعشرون فردًا مِن كتيبة أبو ميمونة وخمسة عشر كلّهم مهاجرين مِن ضمنهم الدّكتور وزوجه.

كان منظر الإخوة وهم يغرقون أمام عينيك مخيف إلىٰ درجة عدم قدرة الثّمان وعشرون حرفًا علىٰ وصف فداحته، تكون تحت نبتة معلّق بها وتجد كذا أخ يتعلّقون بك وينادوك، تحوّل النّهر إلىٰ دم ووصل فوقنا الرّافضة.

في هٰذه الأثناء كانت هناك سيّارة مفخّخة فرغت من الوقود وتُركت علىٰ الجسر وبسببها أُلزم الجميع بالسّباحة فقصفتها طائرة وسقط معها الجسر القديم ولم يستطيعوا التّقدّم فالطّريق أُغلق بوجوههم..

وهٰذا الجسر يحكي مأساة أهل الفلّوجة مع الغزاة الإنجليز قبل مئة عام.

بقينا في الماء نخرج أفواهنا فقط وسبحنا مسافة كيلو ونصف تحت الماء وعلىٰ هٰذا المنوال حتّىٰ استطعنا الوصول إلىٰ يابسة تقلّنا بعيدًا عن أعين الكفـ ـرة، دخلنا إلىٰ إحدىٰ **"ڤلل"** حجّي سامي ووجدنا بعض الإخوة فركبنا سيّارة وكُلٌّ مِنّا ذهب في طريقه..

وصلتُ وكانت مسافة كبيرة ما زالت في أيدينا وكلّها ريفيّة نستطيع أَنْ نُدمّر بها أعتىٰ الجيوش البربريّة إلّا أَنَّ الخيار الأوحد لدىٰ الجميع هو الانحياز إلىٰ الصّحراء لعدم وجود مَن تجتمع عليه الكلمة فالثّقة بأبـي سعد وحجّي عارف فُقدت، وصلتُ إلىٰ أبـي سعد فأخبرني أنّهم يفاوضون صحوات البو عيسىٰ علىٰ دفع مبلغ ثلاث مليارات دولار مقابل عدم التّعرّض لأيّ أخ أو سيّارة تخرج في رتل واحد بدون قتال والطّرف الآخر يعرف أنّنا لن نسلّمهم هٰذه البقعة دون قتال مرير ثلاث سنوات كأقلّ تقدير.



راية التّوحيد مرفوعة علىٰ الشّارع العام ويظهر خلفها العمارة الّتي نسفها أبو سعد -عليه رحمة الله- بالرّافضة ..



أحد عوامّ المسلمين يشارك في المعركة ..

ليلة القيامة ..!

كانت ليلة قاسية ومليئة بالأعيرة النّاريّة مِن الأرض والصّواريخ مِن السّماء وبقي الاشتباك حوالي ثلاث ساعات أسقطوا فيه ثلاث مروحيّات ودمّروا عدّة دبّابات، بالمقابل ارتقىٰ عشرات الإخوة قتـلىٰ نسأل الله أَنْ يتقبّلهم ..

مشىٰ الرّتل في ليلة ظلماء حالكة لا يُرىٰ فيها موضع قدمك وكُنتُ مع خمسة مِن الإخوة لم نخرج بعد وأُغلق الطّريق بوجهنا، تربّصنا حتّىٰ إذا فرغوا وظنّوا أنّها خلَت مِنّا قطَعنا الشّارع سيرًا علىٰ الأقدام وبقينا نمشي حوالي ستّ ساعات .

بزغ الفجر ونزلنا نتيمّم ونصلّي فما إنْ فرغنا حتّىٰ قشعتنا سحابة فأطلقنا نواظرنا إلىٰ السّماء وإذ بسرب طائرات ما بين مسيّر وحربيّ ومروحيّ وغيره، تَركونا وصبّوا حممهم بعيدًا عنّا فعرفنا أنّهم يقصدون الرّتل .. بقينا نمشي وإذ بصاروخ علىٰ مقربة مِنّا جُرح به أحد الإخوة فضمّدناه علىٰ عجالة وبقينا نسير ..

لَمّا وصلنا كان القصف قد انتهىٰ والإخوة أكملوا مسيرهم ولـٰكن المنظر لا يُصدّق ..!

أشلاء مبعثرة، سيّارات مدمّرة، أعتدة مفجّرة، أموال متناثرة، أجساد مقطّعة ..

ومَن هـٰؤلاء؟

كلّهم إخوتك ..!

فتّشنا هنا وهناك علّنا نعرف أحدًا ما أو إنْ كان لا زال بعضهم حيًّا، كنّا كلّما مددنا أيدينا في جيب أحدهم وجدنا وصيّته مكتوبةً، هـٰذا لزوجه وهـٰذا لولده وهـٰذا لوالده وهـٰذا لأمّه وهـٰذا لخطيبته وهـٰذا لفلان وذاك لفلانة ..

يكتوي قلبك ألمًا وأنتَ تُناظر كمّيّة هٰذا الألم دون أَنْ تستوعب أو يشرح لك أحد ماذا حصل، حتّىٰ مَن معي لم يهمسوا ببنت شفة ..!

يا ليتنا متنا قبل هٰذا وكنّا نسيًا منسيًّا ..!

جمعنا الهويّات والوصايا وما نستطيع حمله من الأمانات وحملنا أموالًا تُقدّر بمليارين ونصف ما بين دينار ودولار عرفنا أنّها للدولة لا خاصّة ..

لم يكن أحدنا قَد نزل في هٰذه البقاع مِن قبل والطّريق أمامنا إمّا أَنْ نصل إلىٰ منطقة نعرفها مسبقًا أو يجدنا عابر سبيل أو نموت هلكىٰ بدون دليل، أكملنا مسيرنا وكانت الشّمس علىٰ وشك الغروب فوجدنا أنفسنا عُدنا مِن حيث أتينا إلّا أَنّها كانت عودة خير فقَد وجدنا سيّارة سليمة مِن سيّارات الرّتل، همنا في الصّحراء علىٰ وجوهنا بها ولمّا وصل اللّيل رأينا نورًا يلمح مِن بعيد فأسرعنا نحثّ الخطىٰ نحوه ..

ما كانت إلّا ثكنة فارغة مِن العسكر دخلنا إليها ولحسن الحظّ كان هناك طعام وشراب، مسكتُ القنّينة كي أشرب وعرفتُ مِن خلال الغطاء أنّنا في حدود الأنبار مع كربلاء*[2] فحملنا الماء والبسكويت وعدنا مسرعين ..

بقينا هائمين ثلاث ليال مريرة نمشي ونستريح حتّىٰ نفد الوقود والطّعام فنزلنا نمشي وظللنا علىٰ هٰذه الحالة سبعة أيّام أخرىٰ ونحن لا طعام معنا إلّا تمرات حملناها معنا قبل الخروج ولو كانت علىٰ الطّعام لهانت، فالماء عُدم ونحن في صحراء تربط عدّة صحاري دول ببعضها ولا يدخل هٰذه المناطق حتّىٰ الجن ..!

[2] وكانت أغطية معامل كربلاء تختلف عن الأنبار وغيرها، ولها قصّة في معركة الفلّوجة الأولىٰ أنّه جاءت بعض المساعدات مِن بغداد ورفض الشّيـخ عمر حديد -عليه رحمة الله- الماء الّذي أتانا، وذريعته هي الغطاء الأخضر، خشي أَنْ تكون المساعدات مصدرها الرّافضة فيضعون بها شيئًا، عرفتُ مِن خلال الغطاء أَنَّ هٰذه الثّكنة قريبة مِن كربلاء ..

بعد العشر رأيتُ أحد الإخوة يحمل قنّينة فارغة ويطلب مِن صاحبه أَنْ يتبوّل بها ففعل ذٰلك وحملها وشربها ..!

كان الأمر غريبًا خصوصًا وأنّنا بتنا نُدرك أنّها النّهاية وخفتُ في قرارة نفسي أَنْ نستمرّ علىٰ هٰذه الحالة فيأكل بعضنا بعض !

وعُذرًا علىٰ هٰذا النّقل الصّريح لٰكن القنّينة كان يبول بها واحد ثمّ تدار ويُشرب منها قطرات فإذا فرغت ملأها الثّاني، وللأسف فحتّىٰ البول حُبس مِن أجسادنا الذّابلة ..!

في مسيرنا لَمَحنا بيتين ولأنّنا ظامئون وسط الفلاة ظننّاه سرابًا بقيعة لٰكنّ الميّت يتشبّث بالعود الهزيل إذا وَجد احتمالًا بسيطًا أنّه يُنقذه فسبقنا الأخ أبو فارس الشّامي -عليه رحمة الله- إليه وسمعنا أصواتًا تعلو مِن ناحيتهم علينا، لحقنا سريعًا بأبـي فراس وقال لنا هٰذه حديثة !

توارينا سريعًا إلّا أنّهم اكتشفونا فبدأ الرّمي ومُقابل كلّ عشر مخازن مِنهم نُطلق عشر رصاصات، العتاد علىٰ وشك النّفاد وأنفسنا علىٰ وشك الهلاك ولا طاقة لنا بافتعال معركة فيها احتمال الأسـر أو الكسـر، انسحبنا سريعًا واختبأنا في مغارة، فساقَ الله إلينا ضبًّا سمينًا أشعلنا النّيران بجزء من ملابسنا وبعض ما توفّر مِن العشب الّذي انتزعناه لأجل الشّواء، وبعد انتهاء الأكل دخل أحد الإخوة إلىٰ عمق المغارة كي ينام فسقط ولحقناه وإذ به نبع يدفق الماء رويدًا رويدًا فسجدنا للإلـٰه شكرًا وبكينا حتّىٰ اخضبّت وجناتنا علىٰ كرم العليّ سُبحانه ومَنّه علينا ..

في اليوم الثّاني استيقظنا وعلىٰ رؤوسنا ظبي أو غزال -لا أذكر نوعه بالضّبط- فأمسكناها ونحرناها وأيقنّا أَنَّ لُطف الله -جلّ في عُلاه- نزل بنا ..

إلّا أَنَّ المكوث هنا خطر للغاية مِن كلّ النواحي وكان علينا المضيّ قُدمًا إلىٰ ما لا نهاية حتّىٰ يرحمنا الله فنجد مَن يُقلّنا أو نصل إلىٰ ولاية الفرات، بعد صلاة العصر حملنا بعض الماء في

القارورات ومشينا علىٰ يقين وأمل بربّ البريّة، مضىٰ اليوم الأوّل وحَلَّ بنا العطش فالجوّ صيف ودرجات الحرارة في صحرائنا تتجاوز السّتّين مئويّة ..!

في آخر يوم وبعد أَنْ انتهينا وسقط ثلاثة منّا أرضًا أحدهم صهري -عليه رحمة الله- ولأنّ قدمه مصابة والدّم ينزف اضطررنا لإيقافها بألسننا فترةً وجيزة، فوقف وبكى ودعا الله بألّا يُميته إلّا في سوح الوغىٰ، لم يُنزل يده بعد إلّا وسيّارة هايلوكس لإخوة المخفي تقف عندنا ويحملونا، نزلنا في المخفي وتداوينا لٰكن كان علينا علاج المصابين قبل فوات الأوان فأخذنا سيّارة ونزلنا إلىٰ ولاية الفرات ووجدتُ صديقًا فأخبرنا أَنَّ ذوينا عملوا لكُلٍّ مِنّا عزاءً مهيبًا والنّاس تبكينا وتترحّم علينا الآن ..!

وعلىٰ غلاظتي أخذتُ صهري ودخلتُ إلىٰ البيت فخاف مَن خاف وهرب مِنّا مَن هرب وفقد وعيه مَن فقد ولُوي لسان مَن لُوي.. ،جلسوا يتفحّصوننا ولا أحد يصدّق ما يرى أو ما جرىٰ ومَن تلفّظ مِنهم كان يتعوّذ مِن الشّيطان

انتهت قصّة حديثها شهر ونصف مضىٰ عيدها ونحن لا ندري عنه أَيَّ شيء وصامت النّاس ونحن صيام للقحط وكانت حصيلة القتلىٰ في الرّتل حسب ديوان الصّحّة أكثر مِن 950 شهـ يـ ـدًا نحسبهم وربّهم حسيبهم مِن خيرة أجناد الأنبار وبغداد والجنوب واستولىٰ الرّافضة علىٰ قلعة الإسلام الأولىٰ في العراق هٰذا العصر فلّوجة الإسلام مدينة العزّ أمّ المساجد ..

وإِنْ توقّف حديثنا ففعالنا لم تتوقّف ولا غالب إلّا الله ...



جانب مِن احتراق سيّارات الرّتل قرب الرّزّازة ..



سيّارات المسلمين المتروكة في آخر نقطة تجاه العامريّة ..

خاتمة ..

بعد الانتهاء مِن قصّ أهوال الانحياز، يُمكنني القول أنّنا اختصرناها بشكل لا يُطاق حتّىٰ لا تطول فيملّ القارئ أو تقصر فيغيب عن الأذهان جزء من الإدلاء..

وغفلتُ عن كثير ولم أسمِّ إلّا القليل مِن فرسانها وأحجمتُ عن ذِكر بعض الملابسات لعدم فهمها ممّن لم يحضرها

تحدّثتُ عنها بعد وقت طويل مِن انقضاء أجلها لأنّي رأيتُ الكثير يعتقدون بأَنَّ ختام معركـة الفلّوجة الثّالثة كانت هزيمة، ونحنُ نَردّ عليهم بما شاهدته أعيننا ووعته عقولنا وعايشته أجسادنا الهزيلة؛ لا هرطقات وكلام قيل وقال بأسانيد مجروحة لا يأخذ بها حتّىٰ قاضي الطّغاة بل ولا جارنا البقّال ..!

وإنّما كلامنا شهادة ليس إلّا فنعتذر عن رداءة السّرد وهزالة الحكاية وعدم الخوض عميقًا بها ولربّما تُستحدث مستقبلًا إن استطعنا الكتابة بأريحيّة دون همز أو لمز ..

والله تعالىٰ المعين ..

فهرس الكتاب